
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

# النص الإثنولوجي الوسيط

# الخبر الجغرافي نموذجا

**محمد حبيدة**[*]

إذا كان الإغريق هم أول من ابتكروا الجغرافية في العصر القديم كعلم امتزجت فيه معارف متعددة، طبيعية وبشرية، كتخطيط الأرض وتاريخ الأهالي وأسلوب المعاش والتنظيم الاجتماعي، وذلك على يد علماء كبار أمثال بطليموس وأرسطو وأوقليدس وهيردوت، فإن العلماء العرب منحوا لهذا القطاع المعرفي الحيوي مكانة خاصة بإدخالهم لتقنيات جديدة في طريقة وضع الخرائط وأوصافهم لشعوب العالم المعروف آنذاك، استنادا إلى المشاهدة والملاحظة. ففي مرحلة أولى استأنس العرب بكتاب بطليموس في "الجغرافية"، لكن ما اختطه هذا الجغرافي الإغريقي كان يقتصر على العالم المعروف لدى الإغريق، ألا وهو الحوض المتوسط، في الحين ظلت باقي الأراضي في حكم "المجهول" (terra incognita). والحال أن الإمبراطورية الإسلامية كانت قد امتدت أطرافها إلى الشرق من هذا الحوض. ولذلك فإن العرب هم الذين أدمجوا هذا الطرف الكبير من العالم في التصور الجديد للأرض. وقد تأتي لهم هذا الحقل المعرفي الكبير، الذي وضع لمسة خاصة على علم الجغرافية، بفضل الحساب، إذ استطاعوا تدقيق الكثير من المعطيات ومراجعتها وتصحيحها [1].

لقد ساهم العرب والمسلمون في تطوير الأسس الثلاثة الرئيسية التي قامت عليها الجغرافية منذ ذلك الحين، ويتعلق الامر بالجيوديزيا (géodésie)، وهي قياس مساحة الأرض، والكارتوغرافيا (cartographie)، وهي تمثل مساحة الأرض وتخطيطها، والكوسموغرافيا (cosmographie)، وهي تمثل الأرض ضمن نظام الأجرام السماوية.

---

(*) جامعة ابن طفيل/كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة/ المغرب.

(1) كان العالم الرياضي الكبير أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي (المتوفى حوالي 232هـ/ 847م) هو الذي أسس لعلم الرياضيات. فقد ترك سلسلة من الجداول الدقيقة حول عدد كثير من المناطق والأقاليم ساهمت على نحو كبير في دقة ما ألفه ورسمه الجغرافيون الذين أتوا بعده. حول هذه الجغرافية الرياضية راجع: كراتشوفسكي (أغناطيوس يوليانوفتش)، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ج1، ص75.

**لقد أثمرت الجهود المعرفية للجغرافيين العرب في العصر الوسيط نتائج هامة يمكن إيجازها في النقط الآتية:**

- اتساع المنظور العربي، جغرافيا وثقافيا، وإسهامه في التراكم المعرفي الإنساني.
- استكشاف العوالم المحيطة بالعالم العربي الإسلامي، ومعاينة التنوع البشري، معاينة إثنوغرافية، من حيث الجنس واللغة والدين، بواسطة المشاهدة والملاحظة.
- إقامة جسور ثقافية بين المشرق والمغرب، بعد أن كانت هذه الجسور ذات طبيعة سياسية وعسكرية بالأساس.

ومما يزيد من أهمية الإسهام العربي في مجال المعارف الجغرافية خلال العصر الوسيط هو أن هذا العصر في أوروبا، وخاصة في قرونه الأولى إلى حدود القرن الثاني عشر الميلادي تقريبا، كان عصر فراغ معرفي في هذا الميدان، إذ أن العلوم التي كانت تلقنها الكنيسة، والتي انتظمت في شعبتين رئيسيتين هما "الرباعية" quadrivium (الحساب والهندسة والفلك والموسيقى)، و"الثلاثية" trivium (قواعد اللغة والبلاغة والجدل)، لم تكن تهتم بالجغرافية. وهذا الأمر هو الذي يفسر كيف أن الأوربيين، ولا سيما الإيطاليين منهم، كانوا قد اعتمدوا في تحركاتهم الملاحية والتجارية، خلال القرون الأخيرة من العصر الوسيط، على الجغرافيين العرب ومعارفهم الجغرافية والبحرية، في حوض البحر الأبيض المتوسط، كما في أراضي آسيا وروسيا.

وفي الواقع أن العالم العربي الإسلامي، بحكم موقعه الجغرافي الهام في ملتقى الحضارات القديمة، أي حضارات بلاد الرافدين والمصريين القدماء والإغريق والرومان، كان قد لعب دورا كبيرا في احتضان المعارف الجغرافية القديمة وتطويرها ونقلها إلى أوروبا المسيحية. فبدءً بالموصلي ابن بلاد الرافدين محمد أبو القاسم بن حوقل (المتوفى عام 367هـ/ 978م) صاحب كتاب "صورة الأرض"، مرورا بمشاهير الجغرافيين أمثال أبو الريحان البيروني (ت 1048م/ "تقاسيم الأقاليم")، والإدريسي (ت 1164م/ "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق")، وياقوت الحموي (ت 1229م/ "معجم البلدان")، وانتهاءً بعماد الدين إسماعيل أبو الفداء (ت 1331م) مؤلف كتاب "تقويم البلدان"، تطور علم الجغرافية تطورا كبيرا بناء على الملاحظة والمشاهدة.

ويمكن النظر إلى الإسهام العربي، في ميدان الجغرافية أو تخطيط الأرض، من خلال صنفين رئيسيين من الأعمال. الأول يتصل بما يسمى بالخرائط الكونية، كتلك التي أنتجها الشريف الإدريسي [2]، والثاني، الذي يهمنا تحديدا، يتعلق بخرائط المسالك، وهي ذات تخطيط إقليمي ومحلي، وفائدتها كبيرة من الناحية العملية بالنسبة للتجار والحجاج والجيوش. وهذه الخرائط وضعها الجغرافيون انطلاقا من مشاهدة البلدان التي زاروها وشاهدوا مجالاتها الجغرافية وتنظيماتها الاجتماعية وعادات أهاليها. وتسمى هذه الجغرافية، التي استندت إلى الوصف والمعاينة، بالجغرافية الإقليمية أو الجغرافية البلدانية. ومعظم الجغرافيين الذين اعتمدوا هذا الأسلوب في وصف الأرض وتخطيطها وتبيان تضاريسها ومسالكها، وجمعوا بالتالي بين مصلحة التجارة ومعرفة المجال، كانوا قد زاروا فعلا البلدان المعنية. ويندرج ضمن هذا الأسلوب الجغرافي، خاصة من الجغرافيين الذين سبقوا الشريف الإدريسي، من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر الميلادي، هشام ابن الكلبي (ت 820م/ "كتاب الأقاليم")، ومحمد بن موسى الخوارزمي (ت 846م/ "صورة الأرض")، والإصطخري (ت 912م/ "مسالك الممالك")، وابن خرداذبة (ت 924م/ "المسالك والممالك")، ومحمد الوراق (ت 973م/ "مسالك أفريقية وممالكها")، وابن حوقل (ت 978م/ "المسالك والممالك")، وأبو عبيد البكري (ت 1094م/ "المسالك والممالك") [3].

وفي واقع الأمر، يشير هذان الصنفان من وضع الخرائط وتمثل المجال وفهمه إلى مرحلتين من تطور المعرفة الجغرافية، وهما مرحلة الجغرافية الفلكية المشبعة بالتراث اليوناني، خاصة في القرنين الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين، ومرحلة الجغرافية الإقليمية المبنية على المعاينة الميدانية والوصف الدقيق للطبيعة والبشر، في القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين. ويمكن القول بأن هذه المرحلة الثانية هي التي أسست للجغرافية العربية الإسلامية، في شقها الإقليمي، المتحررة من الرؤية الإغريقية [4]. ويجسد ابن حوقل هذا التحول المعرفي الكبير في الرؤية الجغرافية خلال القرن العاشر الميلادي. يقول صاحب صورة الأرض، وهو يعبر عن تجاوز الجغرافيين الذين سبقوه من ذوي النظرة الإغريقية: "ومما يشهد لهذا الكتاب على غيره مما هو في معناه

---

([2]) هذه الخريطة صورت العالم المعروف في العصر الوسيط من الأندلس إلى السند، ومن أوربا إلى أفريقيا. وكانت تسمى "لوح الترسيم"، نقشت على دائرة من الفضة بأمر من ملك صقلية روجر الثاني. وقد ضاعت هذه الخريطة ولا نعرفها إلا من خلال ما كتبه الجغرافيون عنها. لكن المهم في الأمر هو أن الإدريسي أظهر الأرض في شكل كروي. وكانت حجته في هذا التصور الدائري، ردا على المشككين الذين استندوا إلى حجة استحالة تماسك المياه مع دائرية المحيط، هي أن هذه الأخيرة تتماسك بفعل التوازن المتواصل. ومن جهة أخرى، تظهر خرائط العالم في شكل ممتد تتوسطه مكة المكرمة. وتظهر عليها سبعة نطاقات جغرافية كبيرة، يتوزع كل واحد منها إلى عشرة مجالات. كما أنه من مزايا هذه الخرائط أنها تتوفر على خطوط العرض التي بينت اختلاف الفصول بين المناطق والبلدان.

([3]) حول هذه الجغرافية الإقليمية كما يسميها أغناطيوس يوليانوفتش كراتشوفسكي راجع كتابه المذكور، ج1، الفصل الخامس، ص167 وما يليها.

([4]) انظر علوي (ضياء الدين)، الجغرافية العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، القاهرة، 1984، ص201.

وبسبيله من الكتب المؤلفة في أشكال الأرض أن أشهرهم بالتأليف فيها حكي عن بطلميوس... ما عددته ووصفته وشكلته"، أي من حيث تخطيط الأقاليم والبلدان بطريقة جديدة [5].

## الخبر الجغرافي في صورة الأرض لابن حوقل

يعد محمد أبو القاسم بن حوقل (المتوفى عام 367هـ/ 978م) صاحب كتاب "صورة الأرض" من الجغرافيين العرب الأوائل الذين اهتموا بوصف الأرض ووضع الخرائط [6]. فقد مكنته جولاته ومشاهداته، التي امتزجت فيها السياحة والتجارة، عبر بلدان فارس والعراق والشام وشمال أفريقيا والأندلس وبلدان أخرى غير إسلامية، من وصف مظاهر الأرض والأرياف والمدن ونظام الضرائب ومعاش السكان وطبائعهم، بطريقة لا تختلف كثيرا عن رحالة الأزمنة الحديثة الذين جمعوا بين الرغبة في الاستكشاف والجرد الإثنوغرافي، إذ وضع بين أيدي التجار والحكام المشارقة أداة معرفية ضرورية للإطلاع على جغرافية هذه المنطقة من العالم، من الناحية البشرية والاقتصادية، وأيضا من ناحية التنظيمات الاجتماعية وطبائع الأهالي. وقد مكنه هذا المنهج الجامع بين المعاينة والاستقصاء من المزاوجة بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية والجغرافية الاقتصادية وفق التقسيمات المعمول بها اليوم لدى علماء الجغرافية. وهذا ما أثار انتباه المستشرقين الأوروبيين في القرن التاسع عشر الذين نشروا أعماله وترجموها إلى عدة لغات أوربية. وفي هذا الصدد، نذكر الاهتمام الكبير الذي حظي به هذا الجغرافي من لدن الكثير من الباحثين، وفي طليعتهم المستشرق الروسي كراتشوفسكي في كتابه "تاريخ الأدب الجغرافي العربي" [7]، والمؤرخ العربي نقولا زيادة صاحب كتاب "الجغرافية والرحلات عند العرب" [8]، والمؤرخ الفرنسي أندري ميكيل صاحب كتاب "الجغرافية البشرية للعالم الإسلامي" [9].

---

([5]) ابن حوقل (أبو القاسم)، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص 429- 430.

([6]) كان كتاب ابن حوقل في البداية يحمل عنوان "المسالك والممالك"، تماما كما صنع الإصطخري، وهذا الكتاب كان قد أهداه لأمير حلب سيف الدولة ابن حمدان (ت967م)، لكنه عدل هذا العنوان فيما بعد ليصير "صورة الأرض". وهذه النسخة أهداها لأبي الصاري حسن ابن فضل الإصبهاني. انظر:

J. H. Kramers et G. Wiet, Configuration de la terre. Introduction et traduction française, Paris, Maisonneuve et Larose, 1964, p. XIII.

([7]) كراتشوفسكي، نفس المرجع.

([8]) زيادة (نقولا)، الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1962.

([9]) Miquel (André), La géographie humaine du monde musulman jusqu’au milieu du XIe siècle, Paris/ La Haye, 1973.

تظهر كتب الجغرافية العربية، برأينا، ثلاثة مستويات معرفية في غاية الأهمية، وهي أدب المسالك، والجغرافية الاقتصادية، والإثنوغرافيا..

**المستوى الأول: أدب الاستكشاف أو أدب المسالك**

اعتاد الكتاب العرب على استعمال مفهوم "أدب الرحلات" للدلالة على كتابات الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين الذين جالوا بين البلدان ووصفوا أهاليها، وتركوا بالتالي مادة غنية بالعناصر الأدبية، تجمع بين الوصف والكشف، والانطباع الشخصي والمغامرة، وذلك ضمن بناء أدبي متماسك وأسلوب سلس غالبا ما يمتع القارئ ويشد انتباهه. ولذلك فكثيرة هي الكتابات الجغرافية التي تحتوي الكثير من الأجناس الأدبية كالرواية والمقالة والشعر (10)، كما تتضمن ملامح أدبية عديدة مثل "الحكايات والأخبار، والنوادر والآثار" (11)، إذ حرص ابن حوقل، كما يشير إلى ذلك في مقدمة كتابه، ليس فقط على "إبانة كل بلد"، وإنما أيضا على "الذكر الجميل في كل مشهد" (12). وكل هذه الملامح تكتسي جمالية أدبية من حيث سياقات الحكي، والاستعمالات اللفظية، والبناءات التعبيرية. وفي مقاطع كثيرة، ترقى عمليات الوصف إلى نوع من الجمالية التصويرية، إذ يتخذ السرد شكل "كاميرا آو آلة تصوير"، وهي تسجل بدقة "كل ما يدخل في حقل العدسة" (13)، وتنتقل بالقارئ من حساب المسافات وتبيان شكل الأرض وتحديد المواقع، إلى ذكر المعاشات والتجارات، إلى رسم أشكال البشر. يقول مثلا، وهو يتحدث عن سكان المغرب الأقصى: "وفي كثير منهم ألوان حسنة ومحاسن فائقة في خلقهم وأبدان نقية، حتى يأخذوا في جهة الجنوب فتستحيل ألوانهم وأبشارهم" (14).

ويمكن نعت هذا الجنس الأدبي، في السياق الجغرافي الذي يهمنا، بـ "أدب المسالك"، إذ على الرغم من التقاطعات الحاصلة بين هذا الأدب من جهة، وأدب الرحلة من جهة ثانية، على مستوى السفر كمكون رئيسي في عملية السرد، فإن التباين يظل قائما. فأدب الرحلة يتضمن قسطا وافرا من الذاتية فيما يتصل بالإحساسات والمواقف

---

(10) حسين (محمد فهيم)، أدب الرحلات، دراسة تحليلية من منظور إثنوجرافي، سلسلة عالم المعرفة رقم 138، الكويت، 1989، ص17. انظر أيضا مقالة الباحث الكندي رولان لوهينان حول دلالة أدب الرحلة:

Le Huenen (R.), "Qu’est-ce qu’un récit de voyage", Littérales, n°7, 1990, pp.11- 25.

(11) ابن حوقل، نفس المرجع، ص5.

(12) نفسه، ص15.

(13) الدهان (محمد)، "الرحلة الإثنوغرافية"، ضمن الرحلة بين الشرق والغرب، تنسيق محمد حمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2003، ص310.

(14) ابن حوقل، نفس المرجع، ص100. تتكرر مثل هذه الأوصاف الفيزيولوجية بخصوص بقاع أخرى من العالم الإسلامي (انظر ص 229، 253).

إزاء الموصوف والمرئي [15]، أما أدب المسالك، فينبني في أغلب الأحيان على الموضوعية، على وضع مسافة بين الذات التي ترى والموضوع الذي يرى. ومن ثم، يكون أدب المسالك، من حيث بنية النص القائمة على التصنيف والفهم، تصور واقعي للعالم، وإدراك علمي لهذا العالم، بواسطة الوصف، والسرد، والكتابة [16].

## المستوى الثاني: الجغرافية الاقتصادية

ترى الباحثة كلوديت فاناكير في دراستها القيمة حول الجغرافية الاقتصادية العربية ما بين القرنين التاسع والثاني عشر، أن المشرق تعرف على المغرب بشكل جيد بفضل رحلات ابن حوقل ومشاهداته الميدانية. فإلى حدود القرن التاسع كانت معرفة المشرق بالمغرب محدودة جدا، تقتصر بالدرجة الأولى على الجانب الإداري المحض. والحال أن هذه الكتابات هي التي تمكننا من معرفة اقتصاديات العالم الإسلامي في العصور الوسطى. فبفضلها نفهم مثلا كيف أن أفريقية لعبت دورا رئيسيا في مجموع الاقتصاد الإسلامي. فقد استقطبت حركة البشر والأفكار والبضائع القادمة من المشرق وأعادت توزيعها باتجاه المغرب والأندلس. كما أن موانئ أفريقية وباقي موانئ البلاد المغاربية شكلت حلقة وصل بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي. هذا بالإضافة إلى انفتاح أفريقية على أفريقيا وبخاصة أفريقيا الغربية، إذ لم تعد إفريقية بلدا متوسطيا صرفا، بل منفتحا أيضا على جنوب الصحراء، بفضل الدور الذي لعبته مدينة القيروان التي تشكلت حولها شبكة من الطرق والمواصلات الرابطة بين مختلف الأنحاء [17]. وفهم آليات هذا التحول من الوجهة الاقتصادية لا يتأتى إلا بالإطلاع على كتابات الجغرافيين العرب، وبخاصة الأوائل منهم.

ومن هذا المنظور، تملأ "صورة الأرض" تلك الثغرة الكبيرة التي عادة ما تتخلل كتب الأخبار، إذ أن هذه الأخيرة تروي الأحداث وتهتم بالبلاطات وكبار الشخصيات، وتُهمِل البنيات وأنماط الحياة. ولذلك، لا يتأتى فهم

---

([15]) Ouasti (Boussif), "Pour une étude imagologique du récit de voyage", in M. Hammam, éd., Al Rihia entre Orient et Occident, publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, 2003, p. 207.

([16]) يرى البعض أن الوصف الخالي من الشعور الذاتي يبقى مجرد دليل، ولا يرقى إلى مستوى الرحلة، انظر: المودن (عبد الرحيم)، مستويات السرد في الرحلة المغربية، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1995، ص18، هـ4 (مرقونة).

([17]) انظر:

Vanacker (C.), Gëographie économique de l’Afrique du Nord selon les auteurs arabes dii IXe siècle au milieu du XIIe siècle", Annales: Economies, Sociétes, Civilisations, n 3, 1973, pp. 679; Cornu (G.), Atlas du monde arabo-islamique a l’époque classique, IXe-Xe siècles, Leiden, 1985, p. 109.

الشروط المادية لحياة الناس وآليات كسب المعاش والعلاقات بين الأفراد والجماعات، من الناحية التاريخية إلا بالإطلاع على كتب الجغرافية، فهي مصدر هام من مصادر التاريخ الاقتصادي للعالم الإسلامي.

ومن جهة أخرى، تنتقل بنا كتب الجغرافية، في مقاطع كثيرة، من المكان إلى الزمان، فتتحول الجغرافية إلى استقصاء لتاريخ المكان وتاريخ الاقتصاد، من خلال ذكر الماضي وأحوال الحاضر. والجدير بالذكر أن عملية الاستقصاء هذه كانت في غالب الأحيان مثبتة من حيث المصدر، إذ بالإضافة إلى المشاهدة، استند ابن حوقل إلى ما "اتفق عليه علماء مسالك الأرض والحساب"، وأيضا إلى الأخبار المروية من طرف الثقاة، العارفين العالِمين. يقول مثلا، وهو يتحرى بعض الأخبار حول بعض المدن المطلة على البحر الأبيض المتوسط، أو بحر الروم بتعبير العصر الوسيط، بأنه أخذها عن "رجل أناف على مائة سنة، ثابت العقل، صالح الأدب" [18]. وعندما يتحدث عن مصادر خبره في ذكر تبدل الأحوال في مدينة القيروان التي وصفها بكونها كانت في زمن مضى "أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجرا وأموالا وأحسنها منازل وأسواقا"، فإنه يقول: "وسمعت أبا الحسن بن علي، وهو صاحب بيت مال أهل المغرب يقول في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة دخل المغرب من جميع وجوه أمواله وسائر كوره ونواحية وأصقاعه عن خراج وعشر وصدقات ومراع وجوال ومراصد، وما يؤخذ عما يرد من بلد وما يلزم الخارج من القيروان إلى مصر ويلزم ما يرد منها من الورق والمقوم بقيمة العين والعين المجتبى من هذه الوجوه، فيكون من سبع مائة ألف دينار إلى ثمان مائة ألف دينار، قال: ولو بُسطت يده فيه لبلغ ضعفه وإن فصر عن ذلك فالقليل" [19].

ويؤكد ابن حوقل هذا الخبر الاقتصادي، مجتهدا في خلق نوع من التقاطع بين المصادر الشفهية. يقول: "وسمعت هذه الحكاية بعينها واللفظ بصيغته من زيادة الله نصر بن عبد الله بن القديم في سنة ستين، يذكرها عن نفسه، وكان صاحب الخراج بإفريقية وجميع المغرب. وكأنهما تفاوضا القول وعَلِما وجوه ذلك" [20].

## المستوى الثالث: الإثنولوجيا

يفتح الحديث عن ابن حوقل نافذة كبيرة على إحدى المعارف الهامة المعروفة اليوم باسم الإثنولوجيا، لا سيما فيما يتصل باستكشاف الأمكنة والأزمنة والمجتمعات، وفق ما بيَّنه الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي

---

(18) ابن حوقل، نفس المرجع، ص 177– 178، 189.

(19) ابن حوقل، نفس المرجع، ص94.

(20) نفسه.

ستراوس الذي يتحدث في كتابه "مدارات حزينة"، عن الرحلة كحركة ذات ثلاثة أبعاد، جغرافية، وتاريخية، واجتماعية [21]. إن ما كتبه الجغرافيون العرب والمسلمون في العصر الوسيط يدفعنا إلى التفكير في "الإثنوغرافيا". فإذا كانت الجامعات الغربية تُعَرِّف الإثنوغرافيا كونها فرع من فروع الأنثروبولوجيا، وأنها تُعنى بوصف الشعوب وتحليل عاداتهم وطبائعهم وأسلوب معاشهم انطلاقا من المشاهدة الميدانية، فإن هذا هو ما نجده بشكل دقيق في كتب الجغرافية. ولذلك وجب التنبه إلى هذا الأمر على نحو خاص والتعامل مع هذه الكتابات كنصوص إثنوغرافية (ethno- textes)، وفق عبارة المؤرخ الفرنسي جاك لوغوف، لأنها تشهد على تنظيم المجتمع، وبالأخص أسلوب المعاش ونمط الغذاء ونوع السكن واللباس والطقوس الدينية والعائلية وغيرها [22].

إن ما يتحدث عنه مارسيل موس (Marcel Mauss) في كتابه "موجز الإثنوغرافيا" الصادر عام 1926، من حيث طرق الملاحظة وتقنيات التناول لوصف الظواهر الاجتماعية والعادات والتقاليد [23]، نجدها حاضرة في كتب البلدان. فعندما يقول ابن حوقل مثلا: "وكان مما حضني على تأليفه وحثني على تصنيفه، وجذبني إلى رسمه أني لم أزل في حال الصبوة شغفا بقراءة كتب المسالك، متطلعا إلى كيفية البين بين الممالك في السير والحقائق، وتباينهم في المذاهب والطرائق، وكمية وقوع ذلك في الهمم والرسوم، والمعارف والعلوم، والخصوص والعموم" [24]، فإنه يحيل إلى قضية جوهرية لدى الإثنوغرافيين ألا وهي وجود تنوع بين الشعوب من الناحية الثقافية حتى داخل نفس المنظومة الدينية، بالنسبة للعالم الإسلامي مثلا. وهذا أمر في غاية الأهمية بالقياس إلى التصور الإثنولوجي. فقد استخلص كلود ليفي ستراوس من سفرياته وأبحاثه الميدانية مسألة هامة جدا، تتقاطع مع تصور الجغرافي ابن حوقل، كون أن الأنساق الاجتماعية تنبع من تعدد عادات الشعوب وتقاليدها ومعتقداتها، التي تجتهد الإثنولوجيا في جردها وفهم تبايناتها [25].

وعلى هذا الأساس، تكون هذه الكتابات العربية الوسيطية قد وضعت لبنة أساسية من اللبنات الأولى للإثنوغرافيا كقطاع معرفي يهتم بطبيعة النظم الاجتماعية والثقافية للمجتمعات، دون خلفية نظرية بالمعنى المتعارف عليه اليوم على المستوى الأكاديمي، وأسست بالتالي لمحطة معرفية جمعت بين الوصف والتنظير في مرحلة لاحقة،

---

([21]) C. Lévi-Strauss, Tristes tropiques, Paris, 1962, pp. 68- 70.

([22]) J. Le Goff, "L’histoire nouvelle", in La Nouvelle Histoire, Bruxelles, 1988, p. 55.

([23]) Mauss (M.), Manuel d’ethnographie, Paris, 1926, pp. 13- 17.

([24]) ابن حوقل، نفس المرجع، ص10.

([25]) C. Lévi-Strauss, Tristes tropiques, op. cit., p. 203.

ولا سيما في العصر الحديث. ومما يزيد من أهمية هذا الأمر أن نظرة الرحالة الجغرافيين إلى مجتمعاتهم والمجتمعات الأخرى، على الرغم من وجود انطباعات ذاتية وأحكام تقويمية، اتسمت في مجملها بالموضوعية واستوعبت الاختلاف كعنصر محدد في فهم المجتمعات والثقافات، بعيدا عن التعصب للثقافة الأم. ولذلك فإنها تكتسي قيمة إثنوغرافية كبيرة. هذا ما يقوله ابن حوقل، وهو يوضح هذه القضية في مدخل كتابه: "وبعض ما أنا ذاكِره فقد يوجد في الأخبار متفرقا، ولا يتعذر على من أراد تقصي شيء من ذلك من سافرة أهل كل بلد، وإن كانت المتعصبة للبلدان والقبائل جارية، على خلاف ما توخيته وشرعت فيه ورسمته من قصدها لحقائقها وإيرادها على ما هي عليه من طرائقها" (26).

وفي حقيقة الأمر، تتكامل هذه المستويات وتتقاطع. لكن هذا التقاطع لا يخلو من تعقيد، لأن أدب الاستكشاف أو أدب المسالك هو نص بسيط ومركب في آن واحد، بسيط لأنه سلس من حيث السرد، ومركب لأنه متغاير الخاصيات والعناصر من حيث البنية. وهذا ما يفسر كيف أن الإنتاج الجغرافي الوسيطي يظهر للباحث، وللقارئ النبيه عموما، كملتقى لمعارف كثيرة: جغرافية، أدب، تاريخ، إثنولوجيا. وبناءً على هذه الأمور، يمكن القول أن كتب الجغرافية قد ساهمت على نحو كبير في تطور المعرفة، ليس فقط على الصعيد العربي الإسلامي، بل العالمي أيضا. فهي تندرج ضمن مسار معرفي طويل الأمد، يمتد من هيرودوت وبطليموس، مرورا بالجغرافيين والرحالة العرب أمثال الخوارزمي وابن حوقل والإدريسي، وانتهاء بكبار الإثنوغرافيين والإثنولوجيين أمثال مارسيل موس وإيفانس بريتشارد وكلود ليفي ستراوس.

---

(26) ابن حوقل، نفس المرجع، ص10.